

النماذج الإنسانية في الآداب العالمية

د.قاسي محمد عبد الرحمان
جامعة أدرار - الجزائر -

ملخص:

النموذج الإنساني شكل من السلوك الذهني، حيث تظهر ملامحه من خلال وظيفته الاجتماعية. إن الشخصية من حيث هي نموذج تعكس حقبة زمنية وطبقة اجتماعية ما...

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على أهمية النماذج البشرية في الدراسات الأدبية المقارنة، وإبراز دورها الفاعل في مختلف الآداب العالمية، وتحديد ملامحها، بالإضافة إلى تبيان قدرة الأديب على توظيف هذه النماذج...

Résumé:

Le type humain est une variante de caractère, où est mise en relief son profile à travers son rôle social. La personnalité en tant que spécimene est un reflet d'une certaine époque et couche sociales.

Cett recherche vise à jeter la lumière sur l'importance du caractère humain dans la littérature comparée et son rôle prépondérant dans la littérature universelle outre le pouvoir du littarateur dans la mise en exergue de ses capacités.

مقدمة:

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن أهمية النماذج البشرية في الدراسات الأدبية المقارنة، ودورها الفاعل في مختلف الآداب العالمية، وتحديد ملامح هذه النماذج، بالإضافة إلى تبيان قدرة الأديب على توظيف هذه النماذج.

يُعرف النموذج الإنساني في الأدب المقارن على أنه " الصورة التي يعطيها الكاتب لشخصية من شخصيات عمله الأدبي، تتمثل فيها مجموعة من الفضائل أو الرذائل أو من العواطف المختلفة التي كانت من قبل في عالم التجريد أو متفرقة في مختلف الأشخاص.¹

والنموذج الإنساني يهتم بدراسة شخصية الشعوب أو الجماعات الإنسانية مثل شخصية العربي أو الفرنسي أو يقوم بتصوير الجماعات المهنية كشخصية الكاهن أو الأستاذ أو الطبيب أو الفلاح.²

إضافة إلى هذا فإن النماذج الأسطورية لها الحظ الوفير في مادة الأدب المقارن؛ لأنها تساعد كثيرا على إبراز الحكايات القديمة التي تشوهت لتقدمها، مثل أسطورة أوديب وبجماليون وفاوست، إلى جانب ذلك الحكايات الشعبية التي أنتجها الخيال الشعبي مثل نموذج الساحر والغول والعفريت وما إلى ذلك من الشخصيات الخرافية.

وأهم ما في هذا النوع من الدراسات هو رصد نمو هذه الشخصيات بين أدب وأدب آخر الذي تنسبه العادات والتقاليد إلى هذه الشخصية، بحيث أن الدارس لها في الأدب المقارن يهتم بما يلي:

- أ- رصد قدرة الكاتب على تطوير الموضوع.
- ب- ملاحظة آراء الكاتب في التبرير أو الحكم على موضوعه وملاحظة قدرته الفنية.

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، دط، 2003م، ص 303.

² - داود سلوم، الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،

القاهرة، 2003م، ص 30 .

ج- رصد التغيير الحاصل في المثل الاجتماعية والمواقف الأخلاقية حسب تبدل الزمن والمجتمع.¹

والأدب المقارن لا يحفل بدراسة هذه النماذج إلا إذا صارت عالمية، وانتقلت من أدب أمة إلى أدب أمة أخرى، وقد تحتفظ خصائص كانت لها في الأدب الذي نشأت فيه وتكتسب مع ذلك بعض الخصائص الجديدة التي يضيفها الأديب - الذي تناولها موضوعا للدراسة - عليها قد يبعد بها قليلا أو كثيرا عن منشئها الأول.

كما قد تتعدد نواحي المعنى الأدبي للشخصية على يد مختلف الكتاب، بل قد تتضاد هذه المعاني وتتضارب تبعا لتأويلات المؤلفين واتجاهاتهم، نأخذ على سبيل المثال قصة كليوباترا التاريخية؛ فقد تناولها شكسبير من زاوية المرأة المغربية والأنانية، عكس ما نجده عند أحمد شوقي الذي حاول في الإطار التاريخي ذاته أن يبرز الجانب الأخلاقي والوطني لهذه الشخصية، وتبرير الأعمال الطائشة التي كانت تقوم بها.

كما نجد في كثير من الأحيان، أن الكاتب يأخذ لب الموضوع ثم بعد ذلك ينسج عليه تفاصيل الشخصية التي يود تصويرها، وهذا ما نجده عند الكاتب الإنجليزي برنارد شو في مسرحيته "بجماليون".

وقد تكون هذه الشخصيات من مصادر إنسانية عامة، أو شخصيات تاريخية أو مأخوذة من مصادر أسطورية أو دينية، أو من الثقافة الشعبية أو مستمدة من التاريخ.

1- نماذج إنسانية عامة:

¹ - داود سلوم، الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، مرجع ساق، ص 30.

يتطرق فيها الباحث للكشف عن الوسائل الفنية التي جعلت الكاتب يصور نموذجاً إنسانياً عاماً في المسرحيات أو القصص أو الشعر الغنائي، ومثل هذه النماذج لا تُحسب على الأدب المقارن إلا إذا انتقلت تاريخياً من أدب أمة إلى أدب أمة أخرى كما هو متعارف عليه في منهج الأدب المقارن. ومن أهم هذه النماذج العامة نموذج البخيل.

- نموذج البخيل في الأدب اليوناني:

أول مسرحية تناولت هذه الشخصية للشاعر اليوناني "ميناندر" Minander (ت 290 ق م)، لكنها ضاعت ولم تصل إلينا. وحاكها الشاعر اليوناني "بلوتس" Plotus في مسرحية له بعنوان "أولالوريا" Aulaluria أو "وعاء الذهب"¹. ويتلخص موضوعها في أن شيخاً بخيلاً يدعى "أوكلليون" Euclion كان يخبئ ثروته الذهبية في وعاء في منزله وهو يعيش في فقر مدقع، خوفاً أن يظن أحد أنه وافر المال، ويحدث أن يخطب جاره "ميجادوروس" Megadorus ابنته "فايدريا" Phaedria، ولكن الأب يتردد لأنه يظن أنه اكتشف كنزه ثم يقبل بعد هذا التردد، وفي حفل العرس يحضر المدعوون والطاهون من جانب ميجادوروس، فيطردهم الأب شر طردة، لأنه يرى في كل واحد منهم سارقاً لكنزه في المستقبل، ثم يرى ديكا يحوم حول موضع الذهب في البيت فيذبحه، ثم يحمل كنزه من مكان إلى آخر ويكثر من الصلاة للآلهة حتى تحمي كنزه، ويلحظه ذات مرة خادم من خدم "ليكونيدوس" Lyconidus، الذي كانت له علاقة عاطفية من قبل مع ابنته ويفهم من الصلاة مكان الكنز ولكن العجوز يشعر به فيطرده، ويحمل الذهب إلى غاية بعيدة عن الناس ويتبعه الخادم بحذر، ثم يسرق الذهب بعد أن ينصرف الشيخ وعندما يعود

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 304.

لا يجد الكنز فيجن جنونه ويرجع إلى المنزل ويعلم أن ابنته متعلقة "بليكونيدوس" والحب متبادل بينهما منذ مدة طويلة رغم فقر الفتاة وغنى حبيبها، وتزول عقبة الفقر حين يحمل الخادم الكنز الذي سرقه مهرا للفتاة كي تتزوج من سيده، فيعتقه سيده ويتم الزواج.¹

نلاحظ من خلال العرض الموجز السابق، أن بلوتس صور البخل من زاوية واحدة، فهو لم يتعمق في تصوير هذه الظاهرة من الناحية النفسية، واكتفى فقط بإظهار عاقبة البخل وعدم تمتع البخل بأمواله.

ب- نموذج البخل في الآداب الأوروبية:

من الأدباء الذين تناولوا نموذج البخل، الكاتب الفرنسي موليير * Molière في مسرحيته الشهيرة "البخل"، وقد تأثر فيها بمسرحية بلوتس إلا أن موليير تفوق عليه في مدى التعمق في تصوير هذه الرذيلة الاجتماعية.

صور موليير شخصية أرباجون Harpagon مثالا للبخل الذي طغت عليه هذه الآفة، حتى أن عاطفة البخل عنده لم تستطع أن تتغلب على عاطفة الحب، وقد طبع الكاتب مسرحيته هذه بطابع الذي يقرب الضحك المر من البكاء؛ ويتمثل ذلك في المسرحية في المشهد الذي "يتحدث فيه كيروك عن حبه لابنة البخل أرباجون الذي يتصور أنه يتكلم عن الصندوق المسروق، بالإضافة إلى أن سرقة الكنز وجدت بطريقة كوميدية، فضلا عن المنولوج الذي يتساءل فيه البخل عن كيفية الوصول إلى الكنز.²

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 164.

* - جون باب تيسر بوكلان الملقب بموليير، ولد عام 1622م بباريس، من بين مسرحياته الهزلية "المتحذقات السخيفات".

² - يرجع إلى موقع الانترنت، <http://www.site.moliere.com>

لقد أبدع مولير في تصوير هذه الرذيلة الاجتماعية، وتجلّى فيها عمق المعاني في التحليل النفسي لشخصيات المسرحية، رغم محاكاته للقديم وتأثره به في الكثير من المشاهد.¹

وتوالى بعد ذلك المسرحيات التي اعتنت بتصوير نموذج البخيل، وأشهرها مسرحية الشاعر الإيطالي كارلو جولدوني* Karlo Goldoni وعنوانها "البخيل"، وهي ملهاة في فصل واحد وفيها يرفض البخيل امبورجيو Amborgio تزويج ابنة زوجته بمن تحب بخلا بجهازها، فيقبل الفتى زواجها دون مال على شرط أن يوصي لها أمبورجيو بكل ما يملك.

2- نماذج إنسانية مصدرها ديني:

- يوسف وزولخا في الأدب الفارسي:

كانت قصص القرآن الكريم مصدرا استفاد منه كثير من شعراء الفرس،² فقد كانت هناك بعض النماذج الفاعلة في الحياة الاجتماعية، استطاع من خلالها الأدباء أن يوصلوا الرسالة المرجوة منها وتحدث أثرها في الناس. من هذه الشخصيات "يوسف وزولخة" في الأدب الفارسي، فقد أخذت عن القرآن الكريم، ثم عن التوراة وشروحه. وقد صور هاتين الشخصيتين في الأدب الفارسي الفردوسي* (ت 1021م)، قضى هذا الأديب جانبا من حياته في مدح الملوك، ثم اتجه إلى النظم في القصص الديني واتخذ منها مادة نظم جديدة، ومن

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 304.

* - كارلو جولدوني: شاعر إيطالي، ولد عام: 1707م وتوفي عام: 1793م.

² - طه ندا، الأدب المقارن، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1975م، ص 130.

* - الفردوسي، (932-1021م)، من أكبر شعراء الفرس، له الشهامة.

بينها قصة يوسف وزولixa. ثم تناولها بعد ذلك الشاعر عبد الرحمن الجامي (ت1492م).

يُظهر الجامي أن ليوسف ميول صوفية، فقد كان يعتقد ككل الصوفية أن التأمل في الجمال الإنساني يقود إلى الله ذو الجمال المطلق. فنجد في ما ترويه القصة، أنه في يوم من الأيام أتت إليه الأميرة المصرية مولعة بحبه، فيقول لها ناصحاً: "الجمال في الخلق انعكاس عابر لا يطول بقاءه كنصرة الوجه، فإذا أردت الخلود فتوجهي إلى أصل الأشياء كلها¹ فجمال الإنسان نسبي أما جمال الله كامل مطلق، والخلود يكون في أصل الأشياء وليس في فرعها. وبعد حديث يوسف هذا ترهبت زولixa وزهدت في الدنيا.

تري زولixa في حلمها وهي صغيرة يوسف قبل أن تعرفه، ويبدو لها في ذلك الحلم أنه سيكون زوجها في يوم من الأيام. وتبقى على عذريتها طيلة زواجها بعزير مصر على شاكلة الزواج الصوفي. وتظل العاطفة قوية لدى زولixa، ويزداد حبها ليوسف يوماً بعد يوم إلى أن طعنت في السن، مع ذلك تبقى وفيه لحبيب رأتها في منامها، وبعد وفاة زوجها تعتزل لتعيش في كوخ، كما تظل ليوسف نظراته الصوفية حتى يعلم ما تكنه له زولixa من حب وأنها قد هرمت وعميت، فيبحث عنها حتى يعلم أنها تقيم في كوخ، فيدعو الله أن يرد لها شبابها وبصرها فيستجيب الله له، فيتزوجها ثم لا يلبث بعد زواجه أن يمل نعيم الدنيا فيسأل الله أن يعجل برحيله فيكون له ذلك ثم تموت زولixa بعد ذلك حزناً عليه².

والملاحظ أن قصة الجامي هذه أنها ابتعدت كثيراً عن القصة الأصلية الواردة في القرآن الكريم، فالكاتب أحاطها بمسحة صوفية.

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص313.

² - طه ندا، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص130.

3- النماذج البشرية ذات الأصل التاريخي:

اعتنى الأدب المقارن بالنماذج الإنسانية ذات الأصول التاريخية، وبما أنه يدرس التأثير والتأثر بين الآداب، فقد اهتم بدراسة الشخصيات والنماذج البشرية العالمية من بينها شخصية "كليوباترا".

1- كليوباترا في الأدب الأوروبي والعربي:

أ- كليوباترا في الأدب الأوروبي (شكسبير):

تعتبر شخصية كليوباترا من الشخصيات التاريخية التي لقيت حظاً وافراً في الأدب، فقد اهتم بها الأدباء منذ العصور القديمة. تمتزج في قصة كليوباترا حوادث سياسية وحب وقاتل، وهي تمثل الصراع الذي كان بينها وبين أوكتافيوس بمساعدة أنطونيوس. وقد لعبت كليوباترا دوراً أساسياً في هذا الصراع بجمالها الذي أوقع في حبها القائد الروماني أنطونيوس.

تناول كليوباترا عدد كبير من الأدباء، وأول مسرحية فرنسية في عصر النهضة ألفها الشاعر جودل Jodelle Etienne (1532م-1583م) وعنوانها "كليوباترا الأسيرة"، ثم جاء بعده صموئيل دانييل Samuel Daniel (1562م-1619م) الإنجليزي ومسرحيته "كليوباترا"، وقد صارت الشخصية عالمية بعد أن تناولها شكسبير في مسرحيته الشهيرة "أنطون وكليوباترا" ثم بعد ذلك تناولها الإنجليزي جون دريدن John Dryden (1631م-1700م) في مأساته "العالم الموقود"¹.

ثم تناولها برنارد شو Bernard Shaw (1856م-1950م) في ملهاته "القيصر وكليوباترا".

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 322-323.

من أشهر المسرحيات في الموضوع ذاته، مسرحية لاشابيل La Chapelle وعنوانها "موت كليوباترا"، ثم مسرحية "كليوباترا" التي ألفها مارمونتل Marmontel عام 1750م، ومسرحية أخرى بالعنوان نفسه لألكسندر صوميه A.Sommet عام 1824م، ثم مسرحية "كليوباترا" للسيدة جيرا ردن Mme de Gérardine عام 1847م. وقد صور هؤلاء الأدباء كليوباترا تلك المرأة المولعة بلذات العيش والانتصار بالخدعة واعتماد المكر والحيلة.

كما سبق أن ذكرنا فإن شخصية كليوباترا دخلت الأدب العالمي عن طريق الأديب الشهير شكسبير وذلك من خلال مسرحيته "أنطونيوكليوباترا". وأحداث القصة تتلخص أن كليوباترا لما أحست بالمكائد التي تدبر حولها لعزلها عن عرشها في مصر، اتجهت إلى سوريا لتجيز جيشها، وهناك التقت يوليوس قيصر الذي فتنه جمالها فساعدها على ارتقاء عرشها، وعندما قُتل يوليوس قيصر انضمت كليوباترا إلى الجانب الذي يتزعمه أنطونيوكليوباترا. ولأنها تأخرت عن تقديم الولاء له فقد صمم على معاقبتها، ولكن ما إن رآها حتى سحره جمالها ونسي العقاب وانشغل بحبها عن أعماله السياسية. وكانت هي أيضا تبادل الشعور نفسه ولكنها كانت تمزج الحب بالسياسة والعاطفة بالمصلحة، وكانت مع حبها لأنطونيوكليوباترا في مملكتها وفي تثبيت عرشها وتهئية الجو لابنها ليتولى عرش مصر بعدها¹، وكانت أخبار القائد أنطونيوكليوباترا تصل إلى القيصر أوكتافيوس في روما بعد أن يضيف إليها الوشاة ما يعكر صفو العلاقة بينها. وأخيرا يقرر أنطونيوكليوباترا أن يسافر إلى روما ليتفاهم مع القيصر وإزالة سوء التفاهم ويتزوج خلالها أنطونيوكليوباترا أخت القيصر ولكن سرعان ما يفر إلى مصر.

¹ - طه ندا، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 212.

على إثر هذه الحادثة، تتعقد الأمور بين أنطونيو والقيصر وتصبح الحرب بينهما ضرورة لا مفر منها. تبدأ الحرب بينهما أولاً في البحر، غير أن أسطول أنطونيو لم يكن مستعداً في تلك المعركة، ثم تأتي بعد ذلك المواجهة البرية، وكان جيش أنطونيو هذه المرة أكثر استعداداً لذلك نجده ينتصر على عدوه في بادئ الأمر، وعاد إلى كليوباترا فرحاً بنصره المؤقت طالبا الراحة بين أحضانها من عناء القتال يوماً كاملاً. وبهذا لم يتحمل أنطونيو مسؤولية الحرب، وراح يخلط بين الغرام والقتال وتحول النصر إلى هزيمة ساحقة.

بعد هذه الهزيمة فضل أنطونيو الموت على العيش أسيراً فانتحر، ووجدت كليوباترا نفسها وحيدة توشك أن تقع أسيرة في يد أوكتافيوس المنتصر الذي سيفرح بأسيرته ويحملها معه إلى روما ويعرضها على الجماهير رمزا حيا على انتصاره، ففضلت الانتحار هي الأخرى، وبهذا تنتهي قصة كليوباترا وأنطونيو.

وقد ألقى المؤرخون على عاتق كليوباترا كل أخطاء أنطونيو؛ "فتخاذه في القتال وضعفه في مواجهة الأعباء، مردّه في رأيهم إلى تلك المرأة الساحرة التي أنزلته من المجد إلى الحضيض، فقضت على حاضره ومستقبله قائداً رومانياً أصيلاً"¹. والحقيقة أن أنطونيو هو وحده المسؤول عن تصرفاته بحيث أنه يتحلى بشخصية متذبذبة اندفعت وراء الحب ولم تر في الوجود شيء غيره.

هذه بعض صفات شخصية أنطونيو. أما كليوباترا فواضح من صورتها عند شكسبير أنها كانت هي الأخرى محبة عاشقة " فعندما سافر أنطونيو إلى روما لإصلاح الأمور بينه وبين القيصر، طلبت من وصيفتها أن تأتيها بالمخدر لتفقد وعيها، فلا تشعر بغياب أنطونيو. وكانت كلما فكرت فيه وهو غائب عنها،

¹ - طه ندا، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 214.

تجرعت من ألم الفراق ومرارته ما يفوق طعم السم"¹. وحتى عندما أرادت أن تموت، اختارت الطريقة السهلة في موتها حتى لا تشعر بالعذاب، كما حرصت كثيرا بأن تتزين وتتجمل كي تلتقي أنطونيو في أبهى منظر لها كما عودته دائما في حياتها، مما يدل على حبها الكبير له.

إضافة إلى صورة الحب، كانت هناك صورة أخرى تمثل الكرامة والكبرياء، فلما انتحر أنطونيو خشي قيصر روما أن تنتحر هي كذلك ويفوت على نفسه فرصة الظفر بها كأسيرة عنده، ولهذا بذل كل ما في وسعه على إبقائها حية، وكان يسعى إلى طمأننتها على نفسها ومالها وعرشها، ولكن كليوباترا فطنت لما يراد بها، ففضلت الموت على أن تعيش ذليلة أسيرة في روما عند القيصر.

كانت هذه قصة كليوباترا مع أنطونيو، وقصة الحب الذي أدى بهما إلى خسارة الحرب ثم الانتحار.

ب- كليوباترا في الأدب العربي (أحمد شوقي):

بعد رجوع القصة إلى موطنها الأصلي - مصر - استهوت هذه الشخصية الفريدة من نوعها أمير الشعراء أحمد شوقي.

أراد شوقي بدفاعه عن كليوباترا أن يرد على الكتاب الأوروبيين، وذلك من خلال مسرحيته "مصرع كليوباترا"، هذه المسرحية التي لاقت نجاحا كبيرا في الأدب العربي.

الشاعر في هذه المسرحية يرد الاعتبار لكليوباترا لا بوصفها ملكة وإنما بوصفها المواطنة المصرية الشرقية المخلصة لوطنها الذي تؤثره على حبيبها وتحيا وتموت لمجد مصر.

¹ -المرجع نفسه، ص 216.

يرى أحمد شوقي أنها عندما تفر من "أكتيوم" موقعة الحرب، وتأبى أن تشترك في الحرب مع أنطونيو ضد أكتافوس، فإن غايتها في ذلك أن ترك البطلين أحدهما يضعف الآخر وتكون هي الأقوى على المنتصر منهما، فنجده يبرر موقفها على لسانها قائلاً:

كنت في مركبي وبين جنودي أزن الحرب والأمور بفكري
قلت روما تصدعت فترى شط را من القوم في عداوة شطر
بطلاها تقاسما الفلك والجيد ش وشب الوغى ببر وبحر
فتأملت حالتي ملياً وتدبرت أمر صحوي وسكري
وتبينت أن روما إذا زالت عن البحر لم يسد فيه غيري
فنسيت الهوى ونصرة أنطونيو س حتى غدرته شر غدر
علم الله قد خذلت حبيبي وأبا صبيتي وعوني وذخري
موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر¹
فكليوباترا تعترف هنا بأنها أخطأت في حق حبيبها، " وأنها حين انسحبت من الواقعة لم تقدر الأمر من الناحية العاطفية "².

يأتي أنطونيو ومعه مجموعة من الجنود، ويخبر كليوباترا بأن الحرب لم تنته بعد، وجاء من أجل أن يقضي معها الليل ويعود إلى المعركة مجدداً، وتخبره بأن هذه مجازفة قام بها وما كان عليه أن يترك أرض المعركة حتى ينتصر نهائياً، وهي في ذلك تقول:

تركتهم لغد؟ هذي مجازفة غد غيوب أسرار وأقدار
مخاطبة أوراس:

¹ - محمد حسين الأعرجي، مسرحيات شوقي، مكتبة الإسكندرية، 2007م، ص 15.

² - طه ندا، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 220.

أوراس أنت بفن الـ قتال أعلم مني

الحرب فنك أورو س والسياسة فني

فكن بحقك عوني وقل لقيصر عني

إن المنى لم تقتصر بل قصر المتمني

فلو صبرتم قليلا وسرتم في تأني

أرحموني وروما من الخصام المعني¹

ولكن أوريوس يطمئنها، فيقضي أنطونيوس الليلة في قصرها في حجرة الولايم في جو من الرقص والغناء والشراب، حتى يأتي وقت ذهابه وجنوده لاستئناف الحرب مجددا. فنجدها في موقف تشجعه للذهاب إلى الحرب عساه ينتصر حيث تقول:

امض إلى الهيجاء أند طونيوس كما يمضي الأسد

إن الأسود في اللبد دونك في هذا الزرد

امض إلى المجد ولا يقعدك شغل في البلد

يا ليث سر، يا نسر طر عد ظافرا أو لا تعد²

يعود أنطونيوس إلى المعركة ويهزم ويفر هربا هو وأوريوس إلى أن يلتقي بأولمبوس، ويخبره نبأ انتحار كليوباترا.

أولمبوس:

مولاي مهلا في الظنون واتئد إن من الظن اتهامها وأذى

أنت على مالك من مروءة رميت بالغدر أحب من وفي

أنطونيوس: ماذا تقول؟

أولمبوس:

¹ - محمد حسين الأعرجي، مسرحيات شوقي، مرجع سابق، ص 22 - 23.

² - المرجع نفسه، ص 42 - 43.

كليوباترا انتحرت بطعنة الخنجر في صدر الضحى

أنطونيوس:

يا للسماء انتحرت؟ أين أين ولم؟ وكيف كان ذلك؟ ومتى؟¹

وعندها يقتل أنطونيوس نفسه حزنا عليها، غير أن هذا الخبر كان مجرد كذبة اختلقها أولمبوس للقضاء عليه. في الجهة المقابلة نرى كليوباترا مع الكاهن في المعبد، يريها - الأفاعي التي سوف بها تنتحر - وتسأله إن كان الموت بسمها يشوه خلقتها وينقص من جمالها، فيجيبها أن سم الأفاعي لا تترك أي أثر ولدغها كوخز الإبر.

وعندما يأتيها الجند بجثة حبيبها وتكتشف الكذبة التي أخبروه بها، تصر أكثر على الانتحار، حتى لا تكون في مطمع قيصر الروم.

هكذا تكون إذن نهاية الملكة المصرية الأسطورية، التي شغلت كتاب الغرب والعرب بشخصيتها الفريدة، فكليوباترا عند أحمد شوقي مثال للمرأة المصرية الغيرة المحبة لوطنها، وهي في هذا الشأن تقول:

أموت كما حييت لمجد مصر وأبذل دونه عرش الجمال²

وبهذا حاول أحمد شوقي أن يرد الاعتبار لهذه الشخصية الفذة التي يعتبرها المصريون مثالا للوطنية.

¹ - محمد حسين الأعرجي، مسرحيات شوقي، مرجع سابق، ص 42-43.

² - المرجع نفسه، ص 81.

4- نماذج إنسانية مأخوذة عن الأساطير:

بجماليون في الأدب الإنجليزي والأدب العربي:

قبل التطرق إلى قصة بجماليون في الأدبين الإنجليزي والعربي، يجدر بنا أن نعطي ملخصاً عن الأسطورة القديمة لمعرفة كيفية تأثر برنارد شو وتوفيق الحكيم بهذه القصة.

بجماليون هو فنان من قبرص هام بجمال تمثال من صنع يديه، فدعا الآلهة فينوس أن يتزوج من امرأة تشبه التمثال، ففعلت الآلهة أكثر من ذلك؛ إذ وهبت التمثال نفسه الحياة. وكان هذا بمثابة عقاب لبجماليون الذي كان يرفض الزواج. ويمكن أن نتصور كيف يمكن لبجماليون أن يزول حياته مع التمثال الذي أحبه بعد أن بعثت فيه الروح، فتلك الروح أفقدته جمالية الخلق التي كان يحس بها الفنان من قبل، وهذا دليل على إعجاب الفنان بخلقه الفني.

إن أول من تحدث عن هذه الأسطورة في الأدب، هو الروماني أوفيد (42 ق.م - 17 م) في مجموعة قصصه الموسومة بـ (المسخ)، ثم تناولها العديد من الأدباء خاصة الانجليز، ومنهم جون مار ستون في قصيدته (نفخ الروح في صورة بجماليون)، كما تناولها وليام شوبنك في ملهية بعنوان: (بجماليون وجالاتيا)، وأشهر هذه المسرحيات التي تناولت هذه الأسطورة هي مسرحية برنارد شو التي عنوانها (بجماليون). نشرت لأول مرة في لندن عام 1912م.

أ- بجماليون عند برنارد شو:

نلاحظ من خلال قراءة مسرحية برنارد شو، أن الشخصية ليست أسطورية، وإنما شخصية

مأخوذة من المجتمع وتعالج مشكلة الطبقة التي كانت سائدة في ذلك الوقت.¹
وملخص المسرحية ما يلي:

يلتقي هنري هجنز Henry Higgins وهو عالم متخصص في علم الأصوات بفتاة فقيرة تباع الزهور تدعى إيلزا Iliza، فيعجب بصوتها ويؤكد لها أنه باستطاعته مساعدتها في تحسين مستواها اللغوي، وأنه يستطيع أن يخلق منها فتاة أرسطوقراطية مهذبة اللغة نظيفة السلوك. وبعد بضعة أشهر من التدريب أقام هجنز حفلا في إحدى السفارات الأجنبية، وقدم للمدعوين إيلزا على أنها أميرة تنتمي إلى إحدى الأسر الملكية الأوروبية، وفعلا نجحت الفتاة في ذلك ولفقت انتباه الحاضرين بلهجتها الانجليزية الراقية، وهكذا نجحت التجربة بالرغم من صلف الأستاذ واحتقاره لشأنها.

يطلب هجنز الزواج من إيلزا فهو يرى أن له الفضل في إعادة تربيتها من جديد، ولكنها في المقابل ترفضه محتجة في ذلك على أن مجتمعه الأرسطوقراطي مليء بالكذب والنفاق، فضلت عليه شابا بسيطا ينتمي إلى طبقتها الدنيا لتعيش معه حياة هادئة.²

نستطيع أن نقول بأن برنارد شو حاول تسليط الضوء على موضوع اجتماعي شائك متمثل في ظاهرة الطبقة الاجتماعية في المجتمع الانجليزي من خلال روح الأسطورة القديمة، حيث نجده قد غير في كل من شخصياتها وأحداثها، وأطلق العنان لخياله يرسم شخصياته الجديدة المستوحاة من وجوه في المجتمع، ووفق إلى حد بعيد في استغلال الأسطورة القديمة لمعالجة فكرة اجتماعية حديثة.

¹ - إبراهيم عبد الرحمن محمد، النظرية والتطبيق في الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، 1982م، ص 217.

² - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 112.

ب-بجماليون عند توفيق الحكيم:

من بين الأدباء الذين حاكوا الأسطورة القديمة لبجماليون هو الأستاذ توفيق الحكيم، وكان

أول ما لفته إليها لوحة شاهدها في متحف اللوفر بباريس، ثم بعد فترة من الزمن شاهد فلما سينمائيا عرض في القاهرة عن بجماليون مأخوذا عن مسرحية برنارد شو، فأعجب كثيرا بهذه الشخصية وكتب فيها مسرحيته الشهيرة ببجماليون.

رجع توفيق الحكيم إلى الأسطورة القديمة وتعمق فيها بخلاف ما فعل برنارد شو و"تفاعل معها وهذا ما يسمى بالتمثل والتأثر"¹. لقد نجح توفيق الحكيم في هذه المسرحية في إبراز الصراع بين روعة الفن لما يبلغ درجة المثالية أو درجة الإبداع العليا وبين واقع الحياة، لينتصر في النهاية للفن الذي يأتي على حساب الواقع.

بعدما ينتهي الفنان ببجماليون من صنع التمثال جلاتيا ويهيم فيه إلى درجة العشق، يتطلع إلى أن يجد في التمثال روحا، فيتضرع للإلهة فينوس في أن تنفخ الروح في تمثاله الذي أفنى كل ماله ووقته في صنعه وطالما حلم به حيا.

بجماليون (من بعيد): فينوس فينوس أيتها السخية بالهبات..... امنحيني هبة واحدة، انفخي حرارة الحياة في تمثال جلاتيا..... زوجتي جلاتيا العاجية..... أعطها حياة يا آلهة الحب والحياة².

تتردد الآلهة فينوس في أول الأمر في منح الروح للتمثال، لكن سرعان ما تشفق عليه وتبتغي مساعدته لكي ينظم إلى رعاياها.

¹ - أحمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، دت، ص 203.

² - توفيق الحكيم، ببجماليون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984م، ص 32.

فينوس (تتقدم نحو التمثال رافعة يديها إليه هاتفة)، بأمرى يا جلاتيا الحياة انعسى وانتظري حتى يوقظك بالقبلات زوجك بجمالين.¹

وعندما يأتي بجمالين هو وصديقه نرسي، ويلاحظان أن الستار الذي كان يغطي التمثال قد انكشف، ويدور حوار طويل بينهما حول الدعاء الذي كان يدعوه للإلهة فينوس. وعندما يخرج نرسي تبدأ جلاتيا بالتحرك وتتأدى بجمالين، وعندها يفرح بجمالين ويشكر فينوس التي منحت الروح لجلاتيا. تبدأ الحياة الطبيعية بينهما "ولكن بجمالين الذي كان قد تعلق وجدانه بتمثاله، ينفر من زوجته حين يراها تحمل المكنسة وتزاول أعمال البيت"². وهكذا تزول عنها تلك الصورة المثالية التي كان يمنحها لها، وأصبحت عادية مثلاً مثل باقي نساء العالم، إذ يقول لها: "لست أنت أثري الفني إني لم أصنع امرأة في يدها مكنسة"³.

هنا يثور الفنان على صورة المرأة الواقعية، فيدعو الإله أن يعيدها كما كانت في صورة تمثال عاجي "أيتها الآلهة ... فينوس يا أبولون ردوا إلي عملي وخذوا عملكم ... ردوا إلي فني ... أريدها تمثالا من العاج كما كانت"⁴.
تحقق له الآلهة ما أراد، وتعود جلاتيا إلى الصورة التي كانت عليها من قبل، فينهال عليها بالمكنسة منتقما من التمثال الذي حرك غرائزه وجعله يتحول من فنان متجرد النظرة إلى رجل يشتهي المرأة حتى أنه يطلب من فينوس أن تبعث فيها الحياة.

¹ - توفيق الحكيم، بجمالين، مرجع سابق، ص 38.

² - أحمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، مرجع سابق، ص 204.

³ - توفيق الحكيم، بجمالين، مرجع سابق، ص 118.

⁴ - المرجع نفسه، ص 129.

واضح من خلال هذه المسرحية أنها تيعبر عن ناحيتين بارزتين، الأولى: تفضيل الفن على الحياة والواقع. والثانية نفور الفنان من المرأة؛ لأنه يرى فيها ملهاته عن فنه، فإنها بمثابة العقبة بين الفنان وفنه.

5- نماذج إنسانية مصدرها أساطير شعبية:

أ- شهرزاد في الأدب العربي:

الأدب المقارن يفترض أن تدرس الشخصيات أو النماذج البشرية إلا إذا غدت عالمية،

فيتناولها كبار الكتاب في مختلف الآداب العالمية، وإلا فإن الأدب المقارن يتخلّى عنها للباحثين في الأدب الشعبي.

من بين هذه الشخصيات الشعبية شهرزاد التي تعتبر العنصر الأساسي في قصص ألف ليلة وليلة، يميل أكثرها إلى الخوارق والأعاجيب ويتصل أقلها بالواقع. إلا أن جميعها تعيش في جو سحري غامض مليء بالألوان الزاهية والطيوب المخدرة المسكرة.¹

قصص ألف ليلة وليلة هي مجموعة حكايات مجهولة المؤلف، ظلت تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق الرواية الشفوية²، ومصير كل الحكايات المروية تبقى دائما مجهولة المؤلف أو المؤلفين، والليالي هي عبارة عن تصوير لجو شرقي غرق في الأوهام والأحلام، والحب والغرام واللذة والمتعة والبطولة والمغامرة والجنان والعاريت والقدر العجيب.

¹ - كامل درويش، والجوري طانيوس منعم، فنون وأعلام، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دت، ص 35.

² - شريفي عبد الواحد، ألف ليلة وليلة وأثرها في الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر، دار الغرب للنشر والتوزيع،

وهران، 2001م، ص 03.

تتصدر هذه الحكايات، حكاية الملك شهريار الذي صدم بخيانة زوجته، فقتلها وأقسم أن ينتقم من بنات جنسها، فكان كل ما تزوج فتاة يقتلها، وقد أدى هذا إلى هلع في المدينة، وذات يوم لم يبق في المدينة من يلب رغبتة من الفتيات فطلبت شهرزاد من والدها - وهو الوزير الأول- أن يزوجه من الملك، فقد كانت تفكر في إنقاذ ما تبقى من فتيات المملكة معتمدة في ذلك على ذكائها وما تحفظه من نوادر وحكايات، غير أن في طلبها هذا شرط وهو أن تصطحب أختها دنيا زاد في ليلتها. وما إن اختلى الملك شهريار بشهرزاد حتى ظهرت أختها دنيا زاد، وطلبت منها أن تحكي لها حكاية، قائلة: " بالله عليك يا أختي حدثينا حديثاً نقطع به سهر ليلتنا "¹. فقالت شهرزاد: " حبا وكرامة إن أذن لي الملك "²، فأذن لها الملك وبدأت بسرد حكاية، وما إن وصلت إلى عقدها المشوقة حتى أدركها الصباح، فكانت كلما يدركها الصباح حتى تسكت عن الكلام المباح. ووعدت أختها أن تكمل القصة في الليلة الثانية إذا أبقاها الملك ولم يقتلها، فكان شهريار يتشوق لمعرفة باقي الحكاية، فيؤجل قتلها إلى الليلة الثانية. وفي الليلة الثانية تتابع شهرزاد قصتها لتبدأ قصة جديدة أحلى وأجمل من الأولى، وهكذا استمر الحال حتى مرت ألف ليلة وليلة، أنجبت خلالها شهرزاد غلاما، فامتنع الملك عن قتلها واعترف له بعفتها، ووجد فيها ما لم يجده في زوجته الخائنة، وبذلك أبطل عادته القديمة في قتل بنات المملكة، وعادت الرعية إلى حياة العدل والأمن والاطمئنان.

اللقاء بين الملك وابنة الوزير هو بمثابة اللقاء بين الموت والحياة، والشر والخير، والقوة والضعف. فالملك يمثل السلطة التي هزتها خيانة المرأة، فقرر الانتقام من كل بنات جنسها وذلك كي لا يصل مرة أخرى إلى خيانة إحداهن له.

¹ - كامل درويش، والجوري طانيوس منعم، فنون وأعلام، مرجع سابق، ص 36.

² - المرجع نفسه، ص 36.

أما شهرزاد فكانت بمثابة طوق النجاة لبنات المملكة، فهي الوحيدة التي عرفت كيف تبطل قتل الملك لها، وأنجبت له أولادا، وحكت العديد من الحكايات والنوادر التي قرأتها من الكتب والنوادر وسير الملوك المتقدمين وأخبار الأمم.

عرفت شهرزاد بشخصيتها القوية، إذ صممت على البقاء حية في أحضان رجل همجي كل همه إرضاء شهواته، " وقد صورها الرومانتيون مثالا لمن يهتدي إلى الحقيقة عن طريق القلب والعاطفة والإلهام"¹.

كتب عن شخصية شهرزاد أدباء عرب كثر على رأسهم توفيق الحكيم في مسرحيته شهرزاد، كذلك في العمل المشترك بين توفيق الحكيم وطه حسين في قصة القصر المسحور، كذلك قصة أحلام شهرزاد لطه حسين والتي تناول فيها الجانب الثاني من حياة شهرزاد والملك شهريار؛ أي بعد انقضاء قصص ألف ليلة وليلة، بحيث يبدأ القصة بقوله. " فلما كانت الليلة التاسعة بعد الألف، أفاق شهريار من نومه مذعورا..."². بحيث أن الملك كان مشتاقا إلى قصص وحكايات زوجته التي أبدعت في سردها " وكان الواقع من شهريار أن نفسه لم تسلم عن قصص شهرزاد منذ انتهت في الليلة الواحدة بعد الألف وإنما كانت تتحرق شوقا إليه إذا أقبل مياعده المعهود من الليل"³. يجعل الكاتب شهرزاد في هذه القصة تسرد حكاية الملكة فانتة وقصتها مع ملوك الجان وعقابها لهم عن طريق أحلام كان الملك يستمتع إليها وهي نائمة، فكانت مواصلة لحكايات اليقظة مع نفس الترتيب السابق؛ أي بعد أن يدركها الصباح تسكت عن الكلام المباح.

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 317.

² - طه حسين، أحلام شهرزاد، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 2000م، ص 513.

³ - طه حسين، أحلام شهرزاد، مرجع سابق، ص 120.

كما أن طه حسين أعطى لشخصية شهرزاد في قصته هذه، صفات تتميز بالغموض والمكر والجمال والسحر، وهو في ذلك يقول: وشهرزاد تلك الساحرة الماكرة.... وتختلس إليه من وقت إلى وقت نظرات كأنها السهام فيها كثير من العطف.... وإنما عاشت خفية متلطفة له غامضة مع ذلك أشد الغموض.¹

هكذا إذن تكون شهرزاد الشخصية الأساسية في قصص ألف ليلة وليلة، وهي كما رأينا سابقا تحكي مجموعة من الحكايات والنوادر الأسطورية والعجيبة يتصل أقلها بالواقع.

ب- شهرزاد في الآداب الأوربية:

انتقلت شخصية شهرزاد إلى الآداب الأوربية عن طريق الترجمة التي قام بها بعض الأدباء

الأوربيين " من بينها أنطوان جالان A.Galland الذي قام لأول مرة في تاريخ أوربا الأدبي بترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية، ما بين (1704م-1717م) في اثني عشر مجلدا.²

نالت هذه الترجمة نجاحا باهرا في فرنسا، وتنافست عليها دور النشر، وظلت مدى قرن من الزمن الترجمة الوحيدة التي عرف بها العالم الغربي (ليالي شهرزاد). ومن بين الكتاب الذين تأثروا بليالي شهرزاد الكاتب الفرنسي الكبير فولتير، وقد كان هذا الأديب مولعا بالشرق؛ حيث أنه خصص له مجالا واسعا في موسوعته وسجل فيها مقالات عديدة يصف فيها عادات وتقاليده أهل الشرق، وقد اطلع على ألف ليلة وليلة وتأثر بها كثيرا عن طريق الترجمة التي قام بها جالان حتى أنه

¹ - المرجع نفسه، ص 121.

² - شريفي عبد الواحد، ألف ليلة وليلة وأثرها في الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص 43.

قال: " لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربعة عشر مرة ¹ لأنه وجد فيها مادة قصصية غزيرة بالأساليب الرائعة وتغليب الجانب الأسطوري على الليالي، إضافة إلى المضامين الإنسانية والأساليب الفنية الجديدة التي أعجب بها الكاتب بحيث أنه كان من الأدباء الذين انساقوا وراء سحر شهرزاد وحكاياتها الرائعة.

صورت هذه الشخصية من يهتدي إلى الحقيقة عن طريق العاطفة، والقصص والحكايات التي كانت تُحكى في هذا الكتاب رمزت إلى انتصار القلب والعاطفة على التفكير المجرد، وأكبر دليل على ذلك قصة علاء الدين والمصباح السحري الذي كان فيها نور الدين مثالا ورمزا للمفكر الذي لا يصل إلى الحقيقة لأنه يريد الاهتداء إليها بعقله في حين اهتدى إليها علاء الدين بسذاجته وطهره، وصار المصباح السحري بعد ذلك رمزا للعبقريّة التي يصل المرء بواسطتها إلى كنوز المعرفة والسعادة عن طريق القلب والإلهام.

خاتمة:

استطعنا من خلال ما ورد في البحث أن نأخذ فكرة عن بعض النماذج البشرية التي اهتم الأدب بمختلف أنواعه، بإبرازها من خلال قصص ومسرحيات وملاحم شعرية باختلاف كتابها واختلاف تجسيدهم لها.

نستعرض فيما يلي مجموعة من النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة:

- يهتم الأديب بإعطاء النموذج المدروس بعض الخصائص التي يمتاز بها أدبه مع مراعاته للظروف الزمنية التي يعيش فيها، إلى جانب ذلك يعمل على إبراز ميوله الفكرية من خلال تلك الشخصية التي تكون بمثابة القالب

¹ - المرجع نفسه، ص 157.

- الذي يصب فيه أفكاره، نأخذ على سبيل المثال ما فعله برنارد شو في كتابته عن شخصية بجماليون حيث أخذ الفكرة عن القصة القديمة، ونسج عليها أحداث جديدة. بخلاف ما قام به توفيق الحكيم مع القصة نفسها إذ نجده يحاكي القديم ويبث من خلاله الصراع الذي يعيشه هو شخصياً، وهو صراع بين الحياة والفن، إضافة إلى عنصر المرأة في حياته، حيث ظهر نفوره منها من خلال المسرحية والمتمثلة في عزوف بجماليون عن الزواج.
- النموذج الإنساني لا يقتصر على عصر دون غيره، ولكنه يكتسب خصوصية في عصره أكثر من غيره، إذا توافرت له الظروف والعوامل، كما يختلف تناول النموذج الإنساني من أديب إلى آخر، ومن حضارة إلى أخرى باختلاف الثقافة والحياة الاجتماعية.
- لا يطمح الكاتب للحكم على النماذج من منظور أخلاقي أو عرفي، وإنما ينظر إليها نظرة فنية، تمكننا من معرفة النفس البشرية بفضائلها ورذائلها، في حالة قوتها وضعفها.
- يتخذ الأديب عادة تلك النماذج الإنسانية وسيلة ليحرك الأعماق الخفية في مجتمعه، راصداً بها ما يطرأ عليه من تغيرات من ناحية، وللتعبير عن حدسه وآماله من ناحية أخرى.
- يرمي هؤلاء الكتاب على اختلاف ميولهم إلى غاية واحدة هي: البحث عن تحرير الإنسانية وسعادتها، ونشر العدالة بين جميع أفرادها، مما تهدف إليه ولا تصل إليه.

مكتبة البحث:

- إبراهيم عبد الرحمن محمد، النظرية والتطبيق في الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، 1982م.
- توفيق الحكيم، بجماليون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984م.
- شريفي عبد الواحد، ألف ليلة وليلة وأثرها في الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2001م.
- طه حسين، قصة أحلام شهرزاد، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 2000م.
- طه ندا، الأدب المقارن، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1975م.

- كامل درويش، والجوري طانيوس منعم، فنون وأعلام، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دت.
 - داود سلوم، الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2003م.
 - محمد حسين الأعرجي، مسرحيات شوقي، مكتبة الإسكندرية، 2007م.
 - محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م.
 - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، دت.
- مواقع الانترنت:
- <http://www.site.moliere.com>